﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَواْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف: 109]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نَتيجةُ مُخالفةِ سَبيلِ التّوحيدِ الوقوعُ في التّعذيبِ

بعد أن بيَّنَ في الآية السّابقةِ سبيلَ الرّشدِ الّتي يرضاها اللّه تعالى لعبادِه المُؤمنين، وأمرَ رسولَه بالدّعوة إليها هو ومَن اتّبعَهُ، ناسبَ أن يذكرَ هنا الرّسالاتِ السّابقةَ والرّسلَ الّذين جاؤوا بها من عند اللّه، وأوحى إليهم، فلمّا أعرضَ النّاسُ عنهم أصابَهُم من عذاب اللّه ما أصابَهُم، وما زالَت آثارُهم وديارُهم شاهِدةً على ذلك.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: جَذرُ الكلمة هو (عقب)؛ ويُجمَعُ أعقابَ الأمور. وعاقِبَةُ كلِّ شيءٍ: آخرُه. وعَقِبُ الرَّجُل: ولَدُه ووَلَدُ ولَدِه الباقونَ من بَعدِه، وقَولُهم: لا عَقِبَ له: أي لم يبقَ له ولَدٌ ذَكَرٌ. والتَّعقيبُ: انصرافُكَ راجِعًا من أمرٍ أرَدتَه أو وجهٍ. والمُعَقِّبُ: الّذي يتتبَّعُ عَقِبَ إنسانٍ في طلب حَقٍّ أو نحوِه[1]. وقولُه ﷻ: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ [النّمل: 10]؛ أي: لم يَنْتظِرْ، وقولُه: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرّعد: 41]؛ أي: لا رادَّ لقضائِه، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾ [الكهف: 44]. والعِقابُ: العُقوبَةُ، وعاقَبَهُ بذنبِه. والعُقبَى: جزاءُ الأُمور. ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا﴾ [التّوبة: 77]؛ أي: أورَثَهُم بُخلُهُم نِفاقًا. وأعقبَهُمُ اللّه؛ أي: جازاهُم بالنِّفاقِ. وتَعَقَّبَهُ: عاقَبَهُ بذَنبِه[2]. وفي الآيةِ العاقبةُ؛ أي: الخاتِمةُ الّتي انتهى إليها أمرُهُم من عذابِ اللّه وسخطِه.

(1) الخليل، العين: (عقب).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (عقب).

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

سُـنَنُ الـلـه لا تتبدّلُ، وإرسالُ الرّسلِ سُنّةٌ لا تتحوَّلُ

بيَّنتِ الآيةُ سنَّةَ إرسالِ الرّسلِ في الأقوامِ السّابقين، مُبيّنًا سبحانَه أنّه لم يُرسلْ رسولًا إلى البشر إلّا منَ البشر أنفسِهم، ومِن مُجتمعاتِهم الّتي يَعيشونَ فيها، ثمّ إنّ إرسالَ الرُّسلِ ﷺ سنّةٌ إلهيّةٌ قديمةٌ، فلماذا يَجعَلُ المُشركون نبوءَتكَ أمرًا مُستحيلًا، فلا يُصدِّقونَ بها؟! وهل كان الرُّسُلُ السّابقونَ ﷺ إلّا رجالًا من أهل القرى أوحى اللّه إليهم، فَسَلَّمَ المُشركون ببعثتِهم، وتَحدَّثوا بقِصصِهم[1]، ثمَّ إنّ هؤلاء يُنكرونَ نبوءَتَك. ثمّ لفتَ نظرَهُم إلى سُنّة اللّه في المُكذِّبين تهديدًا لهم، فلو ساروا في الأرض لوجدوا الآياتِ على ما حلَّ بالمُكذِّبين لرسلِهم، ثمّ أردفَ التّرهيبَ بالتّرغيب على نهج القرآنِ في ذلك، فبيَّنَ أنّ الدّارَ الآخرةَ هي خيرٌ وأبقى، وعلى أصحاب العقولِ أن يَعلموا ويتَّعظوا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

معنَى الواوِ ودلالتُها:

الـرُّسـلُ رجـالٌ اصْطفاهُمُ اللهُ تـعـالى لإصـلاحِ الـخـلْـقِ بِسُنَنِ الحقِّ

(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ واوُ الاستئناف؛ إذ وقعَت بعدَها جملةٌ ابتدأت خبرًا جديدًا، فبعد أن بيّنَ في آياتٍ سابقةٍ حالَ النّاس، وأنّ أكثرَهُم لا يؤمنون بما أودعَ اللّه في هذا الكون من آياتٍ دالّةٍ على قُدرتِه سُبحانَه، ثمَّ بيّنَ اللّه سُبحانَه سبيلَ الرُّسلِ والمُؤمنين؛ استأنفَ هنا ليُبيّنَ طبيعةَ الرُّسلِ وخلْقَهم، وأنّهم رجالٌ بشرٌ من أهل القرى الّتي أُرسِلوا إليها، وأنَّ ما جرى لهم ومعهم، إنَّما هو ضمْنَ سُننٍ لا تتبدَّلُ ولا تتغيَّرُ.

غرَضُ القصْرِ ونوعُه:

لا يُـرسـلُ اللهُ تعالى إلّا بشرًا رجالًا

القصْرُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ قصرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/65.
(2) الموصليّ، أولى ما قيل: 4/342.

صفةٍ على موصوفٍ، حيث قصرَ صفةَ الإرسالِ على الرّجالِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ[1]؛ أي: لم يكنِ الرُّسلُ ﷺ قبلَك ملائكةً أو ملوكًا أو خلْقًا مُختلِفًا عنِ البشر، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾؛ أي: مِثلكَ في البشريَّة، فيكونُ ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ حَصَرَ في الرُّسل الدّعاةَ إلى اللّه، وهو قصرُ قلبٍ لِما اعتقدَهُ العربُ من إنزال الملائكةِ رُسلًا لِلبشر، ففيه ردٌّ على مَن قال: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: 14]. وحملَهُ بعضُ المُفسِّرينَ على قصرِ الإرسالِ على الرّجالِ دونَ النّساء، فيكونُ قصرَ إفرادٍ، قال ابنُ عبّاس: يعني رجالًا لا نساءً، فالرَّسولُ لا يكونُ امرأةً[2].

سِرُّ اخْتيارِ الإرسالِ دونَ البعثِ:

الإرسالُ ملحوظٌ في الانْتِظامِ والبعثِ، مَلحوظٌ فيه الانتشارُ

اختيرَ لفظُ الإرسالِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ دونَ (البعث)، وذلك للتّنبيه على غاية الإرسالِ، وهي هِدايةُ الخلقِ بالوحي، أمّا البعثُ فيغلِبُ عليه معنَى الإثارةِ والانتشارِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: 36]، أي: بُعثوا في كلِّ الأممِ، وهذا يدلُّ على الانتشار، كما أنَّ في الإرسال سلاسةً وانتظامًا، وهو الملحوظُ في الآية، فإنَّ سنّةَ اللّه قضَت أن يكونَ الإرسالُ للبشرِ الرّجالِ.

بَلاغةُ إسْنادِ فعْلِ الإرسالِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

عظمةُ الرّسولِ تأتي من عظيمِ اصطفاءِ الله له

أُسنِدَ فعلُ الإرسال في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ إلى ضمير العظمةِ؛ لتعظيم أمرِ الإرسالِ، وأنَّه صادرٌ عنِ اللّه تعالى بحكمةٍ وعنايةٍ، وأنّه مُتّصِلٌ باللّه سبحانَه، فهو المُرسِلُ بجلالِه وعظيمِ قدرِه، والإرسالُ لا يكونُ إلّا بعدَ الانتقاءِ من بين عموم الرّجالِ،

(1) القصرُ الإضافيُّ: هو أن يختصَّ المقصور عليه بحسب الإضافةِ والنّسبةِ إلى شيءٍ آخر مُعَيّن، لا لجميع ما عداه. نحو: ما عليٌّ إلّا مُسافِرٌ، فإنّك تقصدُ قصرَ السَّفرِ على عليّ بالنّسبة إلى شخصٍ غيرِه، كمحمّد مثلًا، وليس قصدُكَ أنّه لا يوجدُ مُسافِرٌ سواهُ، إذِ الواقعُ يَشهَدُ ببطلانِه. يُنظر: الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 164.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/345.

اختارَ منهُم، واصطفى رجالًا، يكونون أهلًا لهذه المكانة العظيمةِ في تلقّي الوحيِ من عند اللّه واستلهامِ الرّسالةِ منه سبحانَه.

معنَى حرفِ ﴿مِن﴾ ودلالتُه:

في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾؛ فإنّ ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ يتعلَّقُ بـ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، و(مِنْ) لابتداء الأزمنةِ؛ أي: من أوّلِ أزمنةِ الإرسالِ. فأوّلُ رسولٍ أُرسِلَ إلى الأقوام كان رجلًا من أهلِ القرى، ونوحٌ عليه السلام هو أوّلُ الرّسل بحسب ما ذكرَهُ القرآنُ، واستمرّ النّهجُ نفسُه، إلى أن تمّ إرسالُك إلى قومِك، ولولا وجودُ ﴿مِن﴾ لكانَ ﴿قَبۡلِكَ﴾ في معنى الصّفة للمُرسَلين المَدلولِ عليهم بفعلِ الإرسالِ[1].

إرسالُ الرُّسلِ بدأ منذُ الزَّمان الأوّلِ، وليس بِدَعًا في هذا الزَّمانِ

فائِدةُ اختيار لفظِ الرّجالِ دون الرُّسلِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾، فيه ردٌّ ضمنيٌّ على طلب إرسالِ الملائكة؛ أي: ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾ لا ملائكةً؛ لأنّهم كانوا يقولون: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [فصّلت: 14][2]، والرِّجالُ: اسمُ جنسٍ جامدٌ؛ أُطلِقَ هنا مُرادًا به أناسٌ ذُكورٌ؛ واختيرَ ﴿رِجَالٗا﴾ هنا دون غيرِه لمطابقتِه الواقعَ؛ فإنّ اللّه لم يُرسِلْ رُسلًا منَ النّساء لحكمةِ قَبولِ قيادتِهم في نفوس الأقوام؛ إذِ المرأةُ مُستضعَفةٌ عندَ الرِّجال دونَ العَكسِ[3]. فضْلًا عن أنّ لفظةَ الرّجولةِ في القرآن تأتي في سياقِ القوّةِ والفاعليّةِ والجَلَدِ.

الـــرَّدُّ عـلى القائِلينَ بضرورةِ إرســالِ الملائكةِ دونَ البشرِ

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿رِجَالٗا﴾:

أفادَ التّنكيرُ هنا معانيَ التّعظيمِ والتّفخيمِ لشأنِ الرُّسلِ.

بَلاغةُ مجيءِ الإيحاءِ فعلًا مضارعًا:

في قولِه: ﴿إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ حكايةُ الحال الماضيةِ؛ لأنّه

الإيـمـاءُ إلى أنَّ الـرّسـالاتِ مُـسـتـمـرَّةٌ في الرُّسلِ لا انقطاعَ لها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/67.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/480.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/67.

مضارعٌ بمعنى الماضي[1]. وجملةُ قوله: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ صفةٌ أولى لـ ﴿رِجَالٗا﴾؛ أي: نوحي إليهم كما نوحي إليكَ. وقد أفاد المضارعُ هنا استمرارَ نزولِ الوحي على الرّسلِ حتّى أوحي إليكَ، كما أوحي إليهم. وقولُه: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰۗ﴾ صفةٌ ثانيةٌ له، وكأنَّ تقديمَ هذه الصّفةِ على ما قبلَها أكثرُ استعمالًا؛ لأنّها أقربُ إلى المُفرد، فهو إيحاءٌ مُستمرٌّ من أوّلِ رسولٍ إلى أن بلغَكَ الوحيُ، وهذا يدلُّ على وحدة الرّسالةِ، لوحدة الإيحاءِ والموحي ﷻ. فضلًا عن أنّ التّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ عن أمرٍ قد تمّ وانتهى إنّما يفيد استحضارَ الصّورةِ أمام القارئ الكريم، كقوله تعالى في شأن معركةِ بدر: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾ [الأنفال: 12].

نُكتةُ ذكْرِ الإيحاءِ مع اشتمالِ الإرسالِ له:

إكرامُ اللهِ للرُّسل بالإرسال ابتداءً، وبالإيحاءِ استمرارًا

ذُكِرَ الإيحاءُ في قولِه تعالى: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾، والإرسالُ مُتضمِّنٌ له، وذلك للتّفصيل بعد الإجمالِ، ولبيان أنَّ الإرسالَ كان بوساطة الوحي، فتأتيهم الرّسالةُ من عند الله بوساطة جبريلَ المُكلَّفِ بالإيحاء بالرّسالات إلى الأنبياء ﷺ، فيكونُ الإيحاءُ في حياة الرّسول مُستمرًّا إلى نهاية حياتِه؛ لتكتَملَ الرّسالةُ، وتَنطلِقَ الدّعوةُ بعد أن هُدي كلُّ رسولٍ سبيلَه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: 12]. وفيه مزيدُ تشريفٍ للرُّسل الكرام بأنَّ الله أكرمَهُم ابتداءً بالإرسال، ثمّ أكرمَهُم باستمرار الوحي فيهم.

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ:

القراءاتُ اعتنَت بالإيحاءِ والموحي لاستكمالِ عظيمِ شأنِ الوحي

في قولِه تعالى: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾، قَرَأ حَفص ﴿نُّوحِيٓ﴾ بالنّونِ وكسر الحاءِ، وقَرَأ الباقونَ ﴿يُوحَىٰ﴾ بالياءِ وفتح الحاءِ[2]، "فمَن قرأ

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/152.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/296.

بكسر الحاءِ، فالمعنى: كذلك يوحي اللّه إليك. ومَن قَرَأ: ﴿يُوحَىٰ﴾ فمعناه التّكريرُ، كأنّه قال: كذلك يوحَى إليك، وأُضمِرَ: يوحيه اللّه إليك، وكلٌّ جائزٌ"[1]. والفرقُ بين القراءتين هو صيغةُ البناءِ للفاعل في قراءة حفصٍ، وللمفعولِ في قراءة الجمهورِ. وفائدةُ صيغةِ البناءِ للمفعول في قراءة ﴿يُوحَىٰ﴾ هي العنايةُ بالوحي، والاحتفاءُ بهِ باعتبارِهِ أصلَ الرّسالةِ والإرسالِ الّذي يختلفُ عليه القومُ، على اعتبار أنّ الموحي معروفٌ.

وأمّا البناء للفاعل في قولهِ تعالى: ﴿نُّوحِيَ﴾ فيجعلُ المعنى أقوَى في بيان مصدرِ الإيحاءِ، وهو المُتكلِّمُ، وهو اللّه ﷻ، فيظهرُ مع الإيحاء جانبُ العظمةِ والقدرةِ على إتمام أمر الرّسالةِ مَنوطًا ذلك بمشيئتِهِ سبحانَه. وفي هذا الخطاب للنّبيِّ دعوةٌ للتّمسُّكِ بذلك الوحيِ؛ قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [الزّخرف: 43].

معنَى حرفِ (إلى) ودلالتُه:

قال سيبَويه: وأمّا (إلى) فمنتهى ابتداءِ الغايةِ، تقول: مِن كذا إلى كذا[2]. وجاء في (المُقتضَب): "وأمّا (إلى) فإنَّما هي للمُنتَهى؛ ألا ترى أنَّك تقول: ذهبتُ إلى زيدٍ، وسرتُ إلى عبد اللّه، ووكلتُكَ إلى اللّه"[3]، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [النّمل: 33]؛ أي: مُنتَهِ إليكِ. فالمعنى في قوله تعالى: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أنّه قد انتهى الوحيُ إليهم؛ أي: إلى الرُّسل، كما انتهى الوحيُ إليك، وفيه إيماءٌ إلى تشريف مَن قُصِد بأن يكونَ مُنتهى الوحي وغايتَهُ.

تَشريفُ مَن قُصِدَ أن يكونَ مُنتهى الوَحي وغايتَهُ

بَلاغةُ الصّفةِ الثّانيةِ:

ذُكِرَت في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم

الرُّسلُ ليسوا رجالًا فحسب، بل من أهلِ القُرَى المَدعوَّةِ

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/52.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/310.
(3) المبرّد، المُقتضب: 4/139.

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ صفتان؛ صفةُ المُرسَلين الأولى: وهي أنّهم يوحَى إليهم، وصفتُهم الثّانية: أنّهم مِن أهل القُرى، فهُم رجالٌ يوحَى إليهم منَ القُرى نفسِها الّتي أراد اللّه تعالى لهم الخيريّةَ في إرسال الرّسولِ إليهم. ومَوضِعُ الصّفةِ الثّانيةِ تأكيدُ أنَّهم ليسوا رجالًا فحسب، بل هُم من أهل قُرى المدعوّين، فيكونُ الرّسولُ منهم؛ أي: مِن قريتِهم ليخاطبَهُم بلغتِهم، وتكون أساليبُ دَعوتِه مُنسجِمةً مع ما يكونُ له الأثرُ الأكبرُ في إقناعِهم، فتكون دعوتُه مُتَّصِفةً بالحكمة والمَوعظة الحسنةِ.

نُكتةُ التّعبير بالقُرى دونَ المُدُنِ:

قولهُ تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: يُقالُ للمدينةِ: قَريةٌ؛ لاجتماع النّاسِ فيها، من قَرَيتُ الماءَ إذا جَمَعتُهُ[1]. وأهلُ القُرى هم أقوامُ الأنبياءِ والرُّسُلِ فآمنَ بعضُهُم، ولم يؤمنْ أكثرُهُم بما جاءهم به أنبياؤُهُم ورسلُهُم من دلائلَ وبيّناتٍ، وسياقُ السّورة دالٌّ على ذلك، فمعنى الآيةِ هو أخذُ العِبرةِ من تلك الأقوامِ، والاستجابةُ لرسول اللّه ﷺ. وقد ذهبَ بعضُ المُفسِّرين إلى اختصاص الإرسالِ بالقُرى، قال الحسن: لم يُبعَثْ نبيٌّ من بَدْوٍ ولا منَ الجنِّ ولا منَ النّساء[2]. والصّحيحُ أنْ لا دلالةَ في الآية على نفي إرسالِ رسولٍ من أهل البادية[3]، فليسَ المُرادُ بالقُرى الأمصارَ والحواضرَ المُستقرّةَ في علم الاجتماع البشريِّ، بلِ اجتماعُ النّاسِ مُطلَقًا، وعليه قد يجتمعُ في البادية عددٌ أكثرُ ممّا يجتمعُ في القُرى الّتي هي بمعنى المدنِ والأمصارِ، فالعِبرَةُ باجتماع النّاسِ في مكانٍ بقطع النّظرِ عن وصْفِه، وهذا يَنطبقُ على المُدنِ والقُرى والباديةِ. وهذه نكتةُ التّعبيرِ

القُرى يدخُلُ فيها أهلُ الأمصارِ والبوادي، فالعِبرةُ بالاجتماع لا بالاصطلاح

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/253.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/67.

بالقُرى دونَ المدنِ؛ ليدلَّ على الاجتماعِ لا على الاصطلاحِ؛ أي: اجتماعِ النّاسِ في المدينة أوِ القريةِ أوِ الباديةِ، لا اصطلاحِ القُرى بمعنى المدنِ.

بَراعةُ اجتماعِ الزّمان والمكانِ، ودلالتُهما على العُمومِ:

مِن بديعِ الموافقةِ مصطلحُ (أمُّ القُرى) الشّاملُ للسّابقِ والحاضرِ

ذكرَ النَّظْمُ الكريمُ الزّمانَ ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ والمكانَ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لبيانِ الشّمولِ، فالزّمانُ السّابقُ لرسولِ اللهِ ﷺ، فلمّا بُعِثَ رسولُ اللهِ مُحمّدٌ ﷺ كان هو خاتمَهُم وكان المكانُ شاملًا لكلِّ القُرى الّتي بُعِثَ فيها الرُّسلُ سابقًا، فلمّا بُعِثَ ﷺ كان هو خاتمَهُم بالمكانِ الخاتمِ كذلك، فخُتِمَ الإرسالُ بأفضلِ رسولٍ، وبأفضلِ مكانٍ، والزّمانُ والمكانُ يشملان أزمنةَ الأنبياءِ والرّسلِ السّابقين والقُرى والبقاعِ الّتي بُعِثُوا فيها، فلمّا بُعِثَ رسولُ اللهِ مُحمّدٌ ﷺ كان خاتمَهُم زمانًا ومكانًا وفضلًا. وحَسُنتِ الموافقةُ بين قولِهِ تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الشّاملِ لكلِّ القُرى السّابقةِ، مع قولِهِ تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92] الشّاملِ لمكّةَ وما حولَها، فكانَت رسالتُهُ قد شملَتِ النّاسَ جميعًا في المكانِ والزّمانِ، وهذا مِن بديعِ الموافقةِ الإشاريّةِ.

سِرُّ ذكْرِ ﴿أَهْلِ﴾ دونَ الاكتفاءِ بالقُرَى:

تأكيدُ أنَّ الرّسلَ من أهلِهِم، ودفعُ أوهامِ إرسالِ الملائكةِ

الخطابُ يكونُ دومًا لأهلِ القُرى أو عنهم، وقد وردَ مثلُ هذا الخطابِ في أكثرَ من مَوضعٍ في القرآنِ الكريمِ على المَجازِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] دون أن يذكُرَ (أهل)، والمرادُ (أهل القريةِ). وجاءَ الخطابُ هنا على الحقيقةِ دونَ المَجازِ، فقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾؛ لإرادةِ الحقيقةِ نفسِها دون توسعةِ الخطابِ إلى أبعدَ مِن ذلك، فقولُ اللهِ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾؛ لاقتضاءِ المَقامِ، فالحديثُ عنِ الرّجالِ الّذين اختارَهُمُ اللهُ من أهلِ تلك القرى؛ فاصطفى من أهلِ كلِّ قريةٍ رجلًا رسولًا منهم، أوحى اللهُ إليه بالرّسالةِ؛ ليُنذرَ أهلَ قريتِه. فذَكَرَ الأهلَ لذكرِهِ رجالًا قبلَها، ولتأكيدِ ردِّ شُبهةِ إرسالِ

الملائكةِ، بينما لمّا كان الكلامُ على الرّسالةِ نفسِها ذَكَرَ ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ دونَ (الأهل)، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشّورى: 7]. وهذا من قبيل التّشابهِ اللّفظيِّ بين الآيتَين.

فائِدةُ الجمعِ والتّعريفِ:

اتّساقُ الصّيغِ مع السّياقِ والألفاظِ

جَمعُ القُرى وتعريفُها يُناسبُ جمعَ الرّجالِ المُرسَلين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ شاملًا بذلك جميعَ المُرسَلين وكلَّ القُرى. وأفادَ تعريفُ القُرى دلالةَ الكَثرةِ، وشمولَ القُرى الّتي أُرسِلَ إليها قبْل رسالةِ محمّد ﷺ.

غرَضُ الاستفهامِ:

الاستفهامُ للتّوبيخِ والتّقريعِ والإنكارِ

جاءَ الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ للتّوبيخ والتّقريع الإنكاريِّ[1]، فمجموعُ المُتحدَّثِ عنهُم قد ساروا في الأرضِ، فَرَأوا عاقبةَ المُكذِّبين، مثل قومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ[2]، ولكنَّهم لم يَعتبروا ولم يَنزجِروا عن غيِّهم، فاستحقّوا هذا التّوبيخَ والتّقريعَ.

معنَى الفاءِ وتعيينُ المعطوفِ عليه:

تَنزيلُ العالِمِ السّائرِ في الأرضِ مَنزِلةَ الجاهلِ القاعدِ في بلدِهِ

الهمزةُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ داخلةٌ على محذوفٍ، والفاءُ عاطفةٌ على ذلك المحذوفِ[3]؛ والتّقديرُ: أقَعَدوا فلم يسيروا في الأرض، وهي لتفريع قولِه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على ما دلَّت عليه جملةُ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ منَ الأُسوةِ؛ وهذا التَّفريعُ اعتراضٌ بالوعيد والتَّهديد[4]. والمعنى: كذّبَهُم أقوامُهُم من قبل قومِك مثلَما كذّبَك قومُكَ، أفلم يَسِرْ هؤلاء المُشركون من أهل مكّةَ ممَّن يكذّبونَك ويجحدونَ نبوَّتَك، ويُنكرون ما جئتَهُم به من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/346، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/68.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/67.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/68.

توحيدِ اللّه، وإخلاصِ العبادةِ له[1]، فينظروا كيف كانَ عاقبةُ الأقوام السّابقين؟! أي: فينظروا آثارَ آخرِ أحوالِهم منَ الهلاك والعذاب، فيعلموا أنّ عاقبتَهُم مثلُ عاقبة الّذين كذّبوا الرُّسلَ قبلَهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع المَنْفيّ:

تَصويرُ السَّيرِ في الأرض بدون اعتبارٍ كالمرور على الآياتِ باغترارٍ

دلَّ المضارعُ المَنْفيُّ بعد الاستفهام الإنكاريِّ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على أنَّهم قد ساروا في الأرض، ورأوا آثارَ الأقوام الّذين كذّبوا رسلَهُم كعادٍ وثمودَ، فدلَّ على روايةِ حدثٍ قد مضى، فأفادَ تصويرَ السّير؛ أي: أنّهم ساروا في الأرض ورأوا، لكنّها لم تكنْ رؤيةَ الاعتبار، وفيها إيماءٌ إلى أنَّ السّيرَ يجبُ أن يَقترنَ بالعِبرةِ ممّا يُشاهَدُ.

وفيها ربطٌ بقولِه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: يمرّون دونَ اعتبارٍ، كما أنّ السّيرَ هنا دون اعتبارٍ، فاتَّفقَ لهم انعدامُ العِبرةِ في العقول، في الآيات المَمرورِ بها في السّماوات والأرض، والسّيرُ في رؤية عاقبةِ المُكذِّبين.

معنَى حرفِ الظَّرفيّةِ ودلالتُه:

آثـارُ الأقـوامِ المُكذِّبةِ مَبثوثةٌ في الأرض، فمَن سارَ اعتبرَ

الضّميرُ في قولِه تعالى: ﴿يَسِيرُواْ﴾ عائدٌ على مَن أنكرَ إرسالَ الرُّسلِ منَ البشر، ومَن عانَدَ الرَّسولَ، وأنكرَ رسالتَهُ كَفَرَ؛ والمعنى: هلّا يَسيرون في الأرض فَيَعلمونَ بالتَّواتُر أخبارَ الرُّسلِ السّابقةِ، ويَرونَ مَصارعَ الأممِ المُكذِّبَةِ، فَيَعتَبرونَ بذلك؟[2]، فيكون حرفُ ﴿فِي﴾ للظّرفيّة المكانيّة، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ المُخاطَبين والأممَ السّابقةَ جميعًا في وعاءٍ واحدٍ وهو الأرضُ، فما بالُكُم لا تتَّعظونَ ولا تُؤمنون؟! وكذلك أفادَ هذا الحرفُ الدّلالةَ على معنى التَّوغُّلِ والانتشارِ؛ فمَن تحرَّكَ في الأرض باحثًا عن آثار تلك الأممِ وجدَها مَبثوثةً في أماكنَ كثيرةٍ.

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/346.

معنَى حرفِ الفاءِ ودلالتُه:

النَّظرُ ثمرةُ السَّيرِ في الأرض وفائدتُه

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ أفادتِ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ والتَّسبُّبَ؛ إذِ النَّظرُ مُتسبِّبٌ عنِ السَّير، والفاءُ تضمُّ الشَّيءَ إلى الشَّيء، وتجعلُ ذلك مُتَّسِقًا بعضَه في إثر بعضٍ[1]، والنَّظرُ المقصودُ منه أخذُ العِبرِ لا يكونُ على الحقيقة إلّا بعدَ السَّير، وهو مقصودُ السّير وغايتُه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالنَّظرِ:

النّظرُ هو إقبالٌ على الآثارِ للاعتبارِ لا لتَضييعِ الوقتِ بالاغترارِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالنَّظرِ في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾؛ ليدلَّ على التَّفكُّرِ بمَصائرِ الأقوامِ الغابرةِ الّتي عصَت رسلَها، كيف حلَّ بها من عظيم غضبِ اللّه عليها، وخُصَّ النّظرُ بالذِّكر دونَ ذكر الاعتبارِ أوِ الاتّعاظِ؛ لأنّ ما بقي من آثار الأقوامِ لا يُعرَفُ إلّا بالنّظر، فتُرصدُ مَشاهدُ كثيرةٌ، وتُستحدَثُ في الخيالِ حركةُ حياتِهم في مَساكنِهم وأسواقِهم، قبل أن يُصيبَهُم ما أصابَهم منَ العذاب؛ قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص: 58].

وأصلُ النّظرِ المُقابلَةُ، فالنَّظرُ بالبصر الإقبالُ نحوَ المُبصرِ، والنَّظَرُ بالقلبِ الإقبالُ بالفكر نَحو المُفكَّرِ فيه، ويكونُ النّظرُ باللّمس ليُعرَفَ اللّيّنُ منَ الخشنِ، والنَّظَرُ منَ المَلكِ لِرعيّتِه هوَ إقبالُه نحوَهُم بِحسنِ السّياسةِ، والنَّظَرُ في الكتابِ بالعينِ والفكرِ هو الإقبالُ نَحوَه بهما[2]، ففي هذا اللّفظِ إيماءٌ إلى ضرورة الإقبالِ على تلك الآثارِ للاعتبارِ لا لتضييعِ الأوقاتِ بالهوى والاغترارِ.

نُكتةُ استعمالِ ﴿كَيْفَ﴾:

التَّفكُّرُ بأحوالِ الأممِ الغابرةِ من خلالِ الآثارِ الهالكةِ

﴿كَيْفَ﴾ هي للسّؤال عنِ الحال، قال سيبَويه: "وكيفَ على أيّ حال"[3]. وتُعربُ في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ خبرًا للفعل

(1) سيبويه، الكتاب: 2/304.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 74.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/311.

النّاسخ ﴿كَانَ﴾. وفي هذه الآية دعوةٌ للتَّفكُّرِ من خلالِ آثارِهم الماحقةِ، وإمعانِ النَّظرِ فيما جرى لهم، وأخذِ العِبَرِ والعظاتِ، لا التَّغنّي بالأمجاد السّالفةِ من خلال الآثار الهامدةِ.

فائِدةُ ذكرِ ﴿كَانَ﴾ ودلالتُها:

دلَّ ذكرُ ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ على الحصول المُطلَقِ، وخبرُه يدلُّ على الكونِ المخصوصِ، و﴿كَيْفَ﴾ هو خبرُ كان، فلا يفيدُ استفهامًا؛ بل هي لَفْتُ نظرٍ إلى حقيقةِ الكيفيّةِ المُؤلمةِ؛ أي: العاقبةِ العجيبةِ الّتي كانَت، فخبرُ ﴿كَانَ﴾ هي (كيفيّةُ العاقبة وعجيبُ حصولها) أو هولُ حصولها، فجيءَ أوّلًا بلفظٍ دالٍّ على حصولٍ ما، ثمّ عيَّنَ بالخبر ذلكَ الحاصلَ، فكأنّك قلت: حصلَ شيءٌ، ثمَّ قلتَ: حصلتِ العاقبةُ، فالفائدةُ في إيراد مُطلَقِ الحصولِ أوّلًا، ثمَّ تخصيصِه، مع فائدةٍ أخرى هي دلالتُه على تعيين زمانِ ذلك الحصول المقيَّدِ. لكنّ دلالةَ (كان) على الحدث المُطلَق، أي: (الكون)؛ وضعيّةٌ، ودلالةَ الخبر على الزّمان المُطلَقِ عقليّةٌ[1]، ففائدةُ ذكرِ (كان) التّنبيهُ على أنَّ تلك العاقبةَ كانَت في الجميعِ، وهي حاصلةٌ فيهم باعتبارٍ سنَنيٍّ لا يتخلَّفُ.

العاقبةُ سُنَّةٌ مُتحقِّقةٌ في جميعِ الأممِ المُكذِّبةِ

نُكتةُ ذكرِ ﴿عَٰقِبَةُ﴾:

العَقِبُ: مُؤَخَّرُ الرِّجْلِ[2]، وقولهُ تعالى: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: 144]، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: 48]، فالعاقبةُ تُطلَقُ على مُؤخَّرِ الشّيء وما تؤولُ إليه الأمورُ. وحَسُنَ ذكرُ العاقبةِ هنا لبيانِ ما آلَ إليه حالُ الأمم السّالفةِ منَ التَّكذيب، وأنَّ ما كان عاقبةً لأولئك سيكونُ كذلك عاقبةً لغيرِهم، ففيه إيماءٌ تحذيريٌّ أن يستمرّوا في التَّكذيب فيصبحوا عاقبةً!.

إيماءٌ تحذيريٌّ أن يصبحَ المُخاطَبون عاقبةً للّاحقينَ، كما كانَ لهمُ السّابقون

(1) الرّضيّ، شرح الكافية: 2/221.
(2) الراغب، المفردات: (عقب).

نُكتةُ استعمالِ الاسمِ الموصولِ:

العـذابُ قريبٌ بقُربِ المُعذَّبين السّابقين

الاسمُ الموصولُ اسمٌ ناقصُ الدّلالة، فلا يتّضحُ معناه إلّا إذا وُصِلَ بالصّلة، وقد جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ دون أن يقولَ: (عاقبة السّابقين)؛ لبيانِ أنَّ الّذين حلَّت بهمُ العاقبةُ هُم من قبلِهم زمانًا، فليسوا أقوامًا بعيدينَ، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ المُخاطَبين هُم من بعدِ المُتقدِّمينَ، فعليهم أن ينتبهوا ويتَّعظوا لعظيمِ القادمِ، ولا يَغترّوا بما هُم عليه في الحاضر.

معنَى حرفِ ﴿مِن﴾ ودلالتُه:

جمْعُ المُعذَّبين في مَشهدٍ واحدٍ لـلإيـقـاظِ من غفلةِ الهَذَيان

معنَى الحرفِ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ الابتداءُ، وعند سيبَويه والبصريّين أنّها لا تكون لابتداء غايةِ الزّمانِ، وأجاز الكوفيّون استعمالَها في الزّمان؛ أي: أنّها عامّةٌ في ابتداء غايةِ الزّمانِ وغيرِه، واستدلّوا بقوله: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ [التّوبة: 108]، وقوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: 9][1]. وقوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ دلَّ على ابتداء الزّمانِ البعيدِ من أوّلِ البشريّةِ امتدادًا وانتهاءً بآخر المُعذَّبين؛ فيكونُ فيها معنى إحصاءِ الأقوامِ جميعًا وحصرِهم في مَشهدٍ واحدٍ، فمَن آمنَ فله أجرُهُ، ومَن كفرَ فعليه إثمُه.

بَراعةُ التَّآخي اللّفظيِّ واختلافِ الضَّمائرِ:

اتّـحـادُ الإرسـالِ فـي المُـرسَـلـين كاتّحادِ العاقبةِ في المُكذِّبين

من جميل التّناسُبِ في اتِّحاد التَّعبيرِ واختلاف الضَّمائرِ قولُه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾، وقولُه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ كُرِّر الجارُّ والمجرورُ (من قبل)، واختلفَ الضّميرُ بين المَوضعين؛ فالضّميرُ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ يعودُ إلى خاتم الأنبياءِ والمُرسَلينَ محمّدٍ ﷺ، والضّميرُ في

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 8/10.

قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ يعودُ إلى أهل مكَّةَ الّذين ظهرَت فيهم الرّسالةُ أوّلَ ما ظهرَت. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ إرسالَهُ كإرسالِ الأنبياء السّابقينَ، وأنَّ عاقبةَ المُكذِّبين - إنْ أصرّوا - كعاقبةِ المُكذِّبين ممّن قبلَهُم، فالمَشهدُ واحدٌ في الإرسال والعقوبة أوِ الثّواب.

بَلاغةُ التَّقابُلِ بين الجُملِ:

عاقبةُ المُكذِّبين تُقابلُها عاقبةُ المتَّقين

قولهُ تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ معطوفٌ على جملةِ الاعتراض بالتّقريع والتّهديد، وهي قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾؛ فلقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ حكمُ الاعتراضِ الأوّلِ، وهو اعتراضٌ بالتّبشير وحُسنِ العاقبةِ للرُّسل ﷺ، ومَن آمنَ بهم؛ وهو تعريضٌ بسلامة عاقبةِ المُتَّقينَ في الدُّنيا، وتعريضٌ أيضًا بأنَّ دارَ الآخرة أشدُّ على الّذين مِن قبلِهم، مِنَ العاقبةِ الّتي كانَت في الدُّنيا؛ فَحَصَلَ إيجازٌ بحذفِ جُملتَين[1]، وهذا من بديع التَّقابلِ بينَ الجُملِ.

بَلاغة الاحْتِباكِ في الآيةِ:

انشغل الكافرون بالدُّنيا فذُكِرَت عاقبتُهم فيها، واشتغل المتَّقونَ للآخرة فذُكِر جزاؤُهم فيها

في قولهِ تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۗ﴾ احتباكٌ؛ والتّقديرُ: أفلَم يَسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الّذين من قبلِهم مِنَ الكافِرين، ولدارُ الآخرةِ شرٌّ للّذين كفروا، وألَم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الّذين من قبلِهم مِنَ المُؤمنين، ولَدارُ الآخرةِ خيرٌ للّذين اتّقوا، فَذَكَرَ في كلِّ جملةٍ ما يدعو إلى الإعجاب، ففي جملة الكافرينَ ذَكَرَ العاقبةَ في الدّنيا، وفي جملةِ المتَّقينَ ذَكَرَ العاقبةَ في الآخرة؛ تنبيهًا على غاية كلِّ فريقٍ، فالكافرون همُّهُم الدُّنيا فَذَكَرَها، والمُتَّقون عنايتُهُم بالآخرة فَذَكَرَها. وهذا من بديع الإيجازِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/68.

معنَى الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الواو قد تكون عاطفة على قوله ﴿فَيَنظُرُواْ﴾، أي: فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم، وينظروا أنّ الدّار الآخرة خيرٌ للمتّقين، ويمكنُ أن تكونَ الواوُ حاليّةً على معنى: والحالُ أنّ الدّارَ الآخرةَ خيرٌ للمتّقين في أثناءِ نظرِهم.

نكتةُ الإيجازِ بالحذفِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ حُذِفَ الموصوفُ، وأُقيمَت صفتُهُ مُقامَهُ، وأصلُه: ولدارُ النّشأةِ الآخرةِ[1]، ونكتةُ ذلك تمحيضُ النَّظرِ إلى الآخرةِ باعتبارِها المقصودَ بالخطاب.

معنَى إضافةِ الدّارِ إلى الآخرةِ:

أضاف الدّارَ إلى الآخرة في قولِه تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾؛ مع أنّ المرادَ بالدّار هي الجنّةُ؛ وهي نفسُ الآخرة؛ وذلك مثلُ قولِهم: حقُّ اليقين، والحقُّ: هو اليقينُ نفسُهُ؛ لأنّ العربَ تفعلُ ذلك لإفادة التّأكيدِ[2].

وكانَ الظّاهرُ أن يُقالَ - كما قالَ الطّيبيّ - وما الدّارُ الآخرةُ إلّا جدٌّ وحقٌّ لمكانٍ، وما الحَياةُ الدُّنيا إلّا لَعِبٌ ولَهوٌ، إلّا أنّه وضَعَ ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ [الأنعام: 32]؛ مَوضِعَ ذلك إقامةً لِلمُسبَّبِ مَقامَ السَّببِ[3].

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

وَقَعَ تشابُهٌ لفظيٌّ بين قولِه تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام: 32]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف: 169]، فيُسألُ عنِ الفرقِ بين هذه الآياتِ. وبيانُهُ على النحو الآتي:

المسألةُ الأولى: قولُهُ تعالى في سورة يوسف: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وقولُهُ تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ [الأعراف: 169]، فوَصَفَ الدّارَ بالآخرة، وفي الآية الّتي في سورة يوسف أضاف الدّارَ إلى الآخرة؛ وذلك لأنّ قبلَه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137 - 152.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/127.

﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [الأعراف: 169]، فقوله: ﴿هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [الأعراف: 169] إنَّما يعني هذا المَنزِلَ الأدنى، وهو والدّارُ الدّنيا بمعنى واحدٍ، فلمّا جَعَلَ الأدنى وصفًا لِلمَنزِلِ ذَكَرَ الدّارَ الآخرةَ بعدَهُ، فجَعَلَ الدّارَ موصوفةً، والآخرةَ صفةً لها، وكلٌّ يُؤدّي معنًى واحدًا، إلّا أنّه يختصُّ ببعض اللَّفظ دونَ بعضٍ لمشاكلةِ ما قبلَه وموافقتِه له. وأمّا قولهُ: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في سورة يوسف فإنَّ قبلَه: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾، والسّاعةُ هي السّاعةُ الآخرةُ، وهي القيامةُ، فلمّا ذُكِرَتِ الدّارُ أُضيفَت إليها، فكأنّه قال: ولدارُ السّاعةِ الآخرةِ خيرٌ[1].

المسألةُ الثّانيةُ: في سورتي الأنعام والأعراف قولهُ: ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ [الأنعام: 32، والأعراف: 169]، وفي سورة يوسف: ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ﴾. فقولهُ: ﴿لِّلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ﴾ في سورة يوسف هو أنّ القومَ دُعوا إلى الاعتبار بأحوال الأممِ الّذين أُهلِكوا في أزمنة أنبيائِهم بالنَّظر إلى منازِلِهم، وهي خاويةٌ على عروشها؛ ليعلموا أنَّ الدّارَ الآخرةَ خيرٌ لِمَن اتّقى منهم. وقولهُ في سورة الأعراف ترهيبٌ لليهود الّذين في عصر النّبيِّ، وارتِشائهم على كِتمان أمرِ النّبيِّ، وترغيبٌ لهم فيها عند الله تعالى إذا صدقوا ما في كتاب الله ﷺ، والتّرغيبُ والتّرهيبُ لا يَتعلَّقان إلّا بالآنِفِ المُستقبلِ، فلذلك قال: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: 32، والأعراف: 169].

المسألةُ الثّالثةُ: هي إدخالُ اللّام على دار الآخرةِ في سورة يوسف في قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وإخلاؤها منها في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ [الأعراف: 169]. والجوابُ عن ذلك: أنّ قولَه: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ جاءَ بعدَ قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾، ومعناه: فيعلموا كيف كان حالُ مَن قبلَهُم، وأنّ الدّارَ الآخرةَ خيرٌ لَهم، فاللّامُ هي لامُ الابتداء التي تدخل على المبتدأ وتعلِّق عمل الفعل، والفعل هو: فيعلموا الدار خيرا لهم. وأمّا قولهُ تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ [الأعراف: 169] في سورة الأعراف فلم يتقدَّمه اللّامُ، بل قوله: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف: 169] من غير أن يتقدَّمَه ما يجري مَجرَى التّوكيدِ والقسمِ الّذي يُتَلقَّى باللّام[2].

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/808 - 809.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/810 - 811.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

خُصَّتِ التَّقوى بالذّكر في قولِه تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ لأنَّ المُتَّقينَ هُمُ الأصلُ فيها، من حيث إنَّ درجتَهُم أعلى، وغيرهم تَبَعٌ لهم[1]. وفائدةُ التَّعبير بالاسمِ الموصولِ تعظيمُ شأنِ المُتَّقين بذكر علّةِ دخولِ الجنَّةِ والفوزِ بها، وهي التَّقوى، وبيانُ أنَّ التَّقوى عملٌ عظيمٌ تُبذَلُ فيه الجهودُ، وتُراقُ في سبيلِه الدِّماءُ.

التَّقوى عملٌ عظيمٌ لا يتأتَّى بالكلماتِ الفارغةِ والأفعالِ الخاويةِ

نُكتة فصْلِ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

الفصلُ إما لكمال الانفصالِ لاختلاف الخبريّةِ والإنشائيّةِ؛ لأنّه سبقه قولُه تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، وإمّا لكمال الاتّصالِ لكونِها مؤكِّدةً لمضمونِ ما سبقَها.

غرَضُ الاستفهامِ:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ للتَّوبيخِ[2]، وهو الاستفهامُ الثّاني في الآية، فأنكرَ عليهم في الاستفهام الأوّل، ثمّ وبّخَهم؛ ليحثَّهُم على التَّعقُّل والاعتبار بما قد رأوا من عواقبِ السّابقين.

توبيخُ مَن تركَ التَّعقُّلَ والاعتبارَ

معنَى الفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

(الفاء) في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ عاطفةٌ على محذوفٍ، دخلَت عليه همزةُ الاستفهام، تقديرُهُ: "أتعرضونَ يا أهلَ مكّةَ عن إعمال فكرِكُم في هذا، فلا تعقلونَ أنَّها خيرٌ لهُم منَ الحياة الدُّنيا، فتتوسَّلوا إليها بالإيمان؛ أما إنَّكم لو عَقلتُم ذلك لآمنتُم"[3].

الإيمانُ بما جاءَت به الرّسلُ هو سبيلُ العُقلاء

تَوجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

خصَّتِ الآيةُ التَّعقُّلَ بالذّكرِ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ دون مُرادفاتِه؛ لأنَّه لمّا ذَكَرَ سيرَهم ونظرَهم، فكأنَّما دعاهُم إلى إعمال

التَّفكُّرُ مبدأُ التَّعقُّلِ، والتَّعقُّلُ سياجُه وأمانُه

(1) الرّازيّ، غرائب آي التّنزيل، ص: 123.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.

العقلِ بعد الفكرِ؛ إذِ الفكرُ هو مقدِّمةُ العقلِ، فذَكَرَ الغايةَ، وهي التَّعقُّلُ جمعًا بينَهما، وللتّنبيه على أنَّ التَّعقُّلَ هو الّذي يُحافظُ على إيمان المُتفكِّرِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ القومَ كانوا يتفكَّرون، لكنَّهم لا يعقلونَ بما تؤولُ إليه نتائجُ أفكارِهم.

دَلالةُ التَّعبير بالمضارعِ:

تَنزيلُ المُشركين مَنزِلةَ مَن لا يعقلُ لِفقدِهِم غايتَه

عبّرَ بالمضارع في قولهِ تعالى: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ للدّلالةِ على الاستقبال تنصيصًا؛ لأنّه اقتضى طلبًا، وتحضيضًا لهم على التَّعقُّل. وعلى هذا فإنّه يفيدُ التّجدُّدَ مع الزّمن، فدعوةُ القرآن لهؤلاء أن يتعقَّلوا فيَعتبروا هي دعوةٌ دائمةٌ، ففيه الفعلُ المضارعُ المُقترنُ بالاستفهام وهو أمرٌ ضمنيٌّ، كأنَّما قال: اعقلوا، وفيه تنزيلُهُم مَنزِلةَ مَن لا يعقلُ لفقدِهِم غايةَ العقلِ، وهي الاهتداءُ إلى سواء الصّراط، وهذا مَكمَنُ التَّوبيخ.

نُكتةُ حذفِ مُتعلِّقِ الفعل:

كثرةُ المعاني المُتواردةِ على النَّصِّ دليلُ دقَّةِ النَّظمِ وبلاغةِ الأسلوبِ

في قولهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ حَذْفُ مُتعلِّقَ فعلِ ﴿تَعۡقِلُونَ﴾، ونكتةُ ذلك العمومُ؛ أي: تعقلون ما حَدَثَ لِمَن سبقوكم مِنَ الأمم، وما حلَّ بهم مِنَ العذابِ والدّمارِ، وذلك للدّلالةِ عليه فيما سبقَ؛ إذ قالَ تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾، فيكونُ المعنى: أفلا تعقلونَ كيف كانَ عاقبتُهُم، فيُصيبَكُم مثلُ ما أصابَهم، وأفلا تعقلون التّحذيرَ بأنْ يصيبَكُم مثلُ ما أصابَهم، وأفلا تعقلون أنَّ الإيمانَ نجاةٌ والكفرَ هلاكٌ، وما إلى ذلك مِنَ المعاني الّتي يحتملُها السّياقُ، فهي داخلةٌ في العموم.

قراءةُ الأصل موافقةٌ للسّياق، وقراءةُ الالتفاتِ موافِقةٌ للمَقام

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ قرأ الجمهورُ بالياء ﴿يَعۡقِلُونَ﴾

على الأصل، رَعيًا لِقولِهِ: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾[1]، وقرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب وابن عامر وعاصم[2] بتاء الخطابِ ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ على الالتفاتِ منَ الغائبِ إلى المُخاطَب؛ لأنَّ المُعانِدين لمّا جرى ذكرُهُم، وتكرّرَ، صاروا كالحاضرين، فالتفتَ إليهم بالخطاب بالتّاء على خطاب هذه الأمّةِ؛ تحذيرًا لهُم ممّا وقَعَ فيه أولئكَ، خشيةَ أن يصيبَهُم ما أصابَهُم[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

البَعثُ والإرسالُ:

الإرسالُ غايتُهُ إيصالُ رسالةٍ، والبعثُ يغلبُ عليه الانتشارُ

الإرسالُ لا يكونُ إلّا برسالةٍ، وما يجري مَجراها[4]، فالمُرسِلُ يكونُ حاملًا لرسالةٍ، وغايةُ إرسالِهِ هي إيصالُ تلك الرّسالةِ، الّتي عادةً ما تكون قيِّمةً بالنّسبة إلى المُرسَلِ إليهم، وهذا على خلاف المَبعوث؛ إذ إنّ المبعوثَ قد يُبعَثُ لذاته، ولا يُحمّلُ شيئًا أو يصاحبُهُ شيءٌ.

وأمّا البعثُ فيُلحظُ فيه الإثارةُ والانتشارُ، فالبعثُ قد يكون فيه إرسالٌ، وفيه معانٍ أخرى غيرُ الإرسال؛ أي: فيه إرسالٌ وزيادةٌ، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ [البقرة: 247]، أي: أقامَهُ منكم؛ ولذلك يُستعمَلُ البعثُ فيما هو أشدُّ. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾ [الإسراء: 5] فيه قوةُ عملٍ.

القَريةُ والمدينةُ:

القريةُ تدُلُّ على اجتماعٍ مُتَّفَقٍ عليه لا يُشترَطُ في المدينة لاتّساعها

القريةُ من الجذر (قري)، والقِرَى: الاجتماع والجمع والإمساك،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/334.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/257.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 103.

وسُمّيتِ القريةُ قريةً لاجتماع النّاسِ فيها، وهم يجتمعون في الغالب على مجموعةٍ منَ العاداتِ والتّقاليدِ والمَذهبِ. والمدينةُ من (مَدَن): بمعنى: أقامَ، وهي تجمُّعٌ سكانيٌّ يزيدُ على تجمُّعِ القريةِ، كما هو في استعمال القرآن الكريم، فالقريةُ: تدلُّ على توجُّهٍ ثقافيٍّ وفكريٍّ وعَقَديٍّ واحدٍ للمُقيمينَ فيها، وذلك على خلافِ المدينةِ؛ لاتّساعِها وانتشارِها؛ فتدلُّ على اختلافِ توجُّهاتِ المُقيمينَ فيها.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»